

النحو وتعليقه

نقل الشيخ بدر الدين الزركشي في قواعد من بعض المشايخ انه كان يقول
 د العلوم ثلاثة علم نضج وما احترق وهو علم الاصول والنحو وعلم لا نضج ولا
 احترق وهو علم البيان والتفسير وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث ،
 فلم النحو هو من العلوم التي نضجت وما احترقت اي اذا استقرت كلام العرب
 فلا نجد اداة او حرفاً او حالة من حالات الكلمة في الجملة الا استلبط لها النحاة
 حكماً ترجع اليه وتقاس عليه ، فاذا كان الاسم مرفوعاً او منصوباً او مخفوضاً مثلاً
 فلا يخرج عن حكم المرفوعات او المنصوبات او المخفوضات التي نصوا عليها

وما هو النحو ؟ هو فن الاعراب والبناء ، قال التدمي د النحو في الاصطلاح
 هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة الى معرفة
 احكام اجزائها التي اختلف منها . وهو في اصطلاح المتأخرين علم يبحث فيه عن
 احوال اواخر الكلم اعراباً وبناء

وما هي فائدته ؟ قالوا ان فائدته التحرز عن الخطأ . هذا اذا نظرنا اليه كصناعة
 ولكن اذا نظرنا اليه كعلم فله فوائد عديدة فهو يروض العقل ويحلل الفكر ولذلك
 سمى في اصطلاح الاوربيين منطق الالفة . كما انه يعرف التلميذ بالاحكام الكلية
 والاصول المستنبطة من استقراء كلام العرب فاذا قلدهم لولهم كان تقليده عن
 بصيرة وقياس . على ان هذه الفوائد ليست من اغراض الاساسية بل هي نتيجة
 عرضاً . واذا رجعنا الى قولهم ان فائدته التحرز عن الخطأ كانت تلك الفائدة
 نظرية لا عملية . لان الكلام الصحيح لا يعلم بواسطة قواعد واحكام . قد
 تتعلم النحو بمخادفة ومع ذلك لا تنزل من اللغة العربية منزلة اهلها ولا تأمن
 الوقوع في الخط في قراءتك وكلامك وكتابتك . وهذا الفاظ لا يجتنب بدرسه
 قواعد النحو واحكامه مما يصح منه القول ان قواعد النحو واحكامه قليلة الفائدة
 بل لا فائدة عملية لها . وقد اشار الى ذلك فيلسوف العرب ابن خلدون بل اكبر
 مفكرهم حيث قال . د ان العلم بقواعد الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس
 هو نفس العمل ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية

المحيطين بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سفرين الى اخيه او ذي مودته او شكوى ظلامة او قصد من قصوده اخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لتلك والعبارة عن المقصود على اصاليب اللسان العربي . وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملحة ويحيد التنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية . فمن هذا تعلم ان تلك الملحة هي غير صناعة العربية وانها مستغنية عنها بالجملة . هذا ما قاله ابن خلدون على ان السركلة في اسلوب النحو لا في النحو نفسه ولنا في هذا كلام طويل لا يسعنا استيفاؤه في هذه العجالة فتكلم عليه اجمالاً وزججه بالتفصيل الى فرصة اخرى

اولاً . الاسلوب الذي جربنا عليه من قديم الزمان الى اليوم هو ان تتعلم اللغة من النحو لا النحر من اللغة فيكون الشأن كل الشأن في اسلوبنا القديم هو معرفة احكام النحو وقواعده اي صناعة العربية وليس اللغة نفسها او كيفية العمل لا العمل نفسه كما قال ابن خلدون . وهذا لا فائدة عملية منه بل احرى به ان توضح اللغة مع لغة ميتة . وتحصيل اللغة بالتقليد . هما كان شاقاً اهون على الطالب من ادراك الاحكام الكلية والاصول العقلية ولا سيما اذا كانت حديثاً لم تنم قواعد العقلية بعد ولم تزال لغتنا محدودة . لان تلك الاحكام تقتضي حصر الفكر وقوة في الحكم ومهارة في تطبيق الاحكام الكلية على اللغة . فاذا اردنا ان نكسب الطلبة ملكة اللغة وعلقتهم قيادتها صلياً بحيث اذا قرأوا او تكلموا او كتبوا اجروا في ذلك على الاسلوب الصحيح بدون تعقيد ولا اشكال ولا تحفظ ولا غلط فاحسن الطرق ان نخاطب التلاميذ باللغة الصحيحة . ان نحرض على ان يعطهم يقرأون احسن المؤلفات ويستظهرون اجمل القواعد نظماً ونثراً . ان نمرسهم كثيراً على الكتابة . ان نتوهم ما اتاد من عباراتهم وعبارة اخرى ان تكون اللغة العربية لغة حية تدرس لانهم ادبياتها القديمة فقط كما تدرس اللغة اللاتينية او اليونانية بل لتكون لغة التخاطب والتعامل

اذا رأيت التلاميذ يعجزون عن اكتساب ملكة اللغة العربية قراءة وتكلماً وكتابة فليس ذلك ناشئاً عن صعوبة اللغة العربية ولا عن عجز الاساتذة عن تدريسها ولكنها ناشئة عن كون اللغة في أكثر مدارسنا ليست اللغة الحية .

يدخل ابناؤنا الى المدارس الاجنبية فلا يلبثون ان يعرفوا اللغة الاجنبية اكثر من لغتهم ويستعملوا التكلم والكتابة بها اكثر من التكلم والكتابة بلغتهم فيحسب الوالدون ورؤساء المدارس ان ذلك ناشئ عن صعوبة اللغة العربية وسهولة اللغات الاخرى. ولكن لو تدبرنا الامر لرأينا ان ابناؤنا انما يتقنون اللغات الاجنبية على صعوبة اكثرها بالنسبة الى لغتنا وعلى جهل اصائلها احيانا بالاسباب تدرسيها لانهم يستعملونها ويحسونها دائما. فهم يدرسونها في المطالب والجغرافية والتاريخ والالمان والموسيقى والتصوير وسائر الفروع ويتكلمون بها في غرف التدريس وفي ساحات اللعب وفي رواحيهم ومعيهم فلا يحب اذا انطبعت على العنق واستعملوا فيها كل صعب. والامر بالمكس في لغتهم فهم لا يستعملونها الا في كتب قراءتهم واذا تكلموا بها في المدرسة او خارجها فهم انما يتكلمون بلغة اخرى غير اللغة الصحيحة. وعلى ذلك فدرس النحو ليس من الضروريات الضرورية لانقان اللغة واجتباب الفلظ. فان كثيرين من كبار الكتاب والشعراء والادباء في اللغة العربية وغيرها اكتسبوا ملكة اللغة وملكوا قيادها على حين لم يتعلموا قاعدة من قواعد النحو بل الذين درسوا النحو في مطولاته اذا قرأوا او تكلموا او كتبوا راعوا في ذلك وحى السليقة لا احكام النحو وقواعده. بل ما قولك في ذلك الجهم الغفير من الشعراء والمخطباء والادباء الذين نبهوا في الامة العربية قبل وضع علم النحو وبينهم من لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة مثل المتلمس الشاعر المشهور. ومنهم كثيرون نبهوا بعد وضع علم النحو ولم يكونوا في اول عهد من اهل العلم والادب بل كانوا يتماطلون اصملاً يدوية مثل سري الرفاه الذي نبغ في الشعر على عهد سيف الدولة وهو يرفو ويطرز في دكانه وغيره. فكيف اكتسب هؤلاء اللغة؟ اكتسبوها بالاستعمال والتقليد والتمرن والبداية. واذ عرفوا احكام النحو وراعوها في استعمالهم فلانهم استخرجوها من اللغة بالاستقراء فهم تعلموا النحو من اللغة وليس اللغة من النحو كما قدمنا. وهذه الاحكام التي استخرجوها بالاستقراء لم يكن لها اقل علاقة باجادتهم في الفنين من المنظوم والمنثور. يقال ان محمود سامي البارودي الذي قيل فيه انه منتهي العصر كان من اولئك الذين تعلموا اللغة من اللغة نفسها فكان اذا وقع الاسم في كلامه بعد ان او احدى

اخواتها نسبة قياساً على نظائره من اقوال غيره من الشعراء المتقدمين وليس على ما عرفت من احكام إن واخواتها. وقد لوحظ ان الذين يشتغلون بشئيل الروايات الموضوعية باللغة العربية الصحيحة قد اصبح الاعراب فيهم ملكة مع ان اكثرهم اصيون. فاذا قبل البحث في اسلوب تدريس النحو يجب ان نعمل على احياء اللغة والأقليس في الاسلوب غناء

واللغة لا تحيا إلا اذا استعملناها تكليماً وقراءة وكتابة ولا بأس هنا من التفصيل ولو باختصار تنمة للفائدة. اما التكلم فيجب على الاستاذ ان لا يخاطب تلاميذه إلا باللغة الصحيحة وان لا يتنزل الى استعمال اللغة العامية في حال والأف فهو يعلمهم لغة ويخاطبهم بلغة اخرى. واللغة التي يخاطبهم بها تنطبع على السنتهم اكثر من اللغة التي يعلمهم اياها. ويشترط في استاذ اللغة ان يكون نصيح العبارة مهذب اللفظ جميل الصوت اتيق الديباجة لئلا مفوهاً لان التلميذ يتعلم من لغة استاذة اكثر من الكتب. وكذلك يجب عليه ان يكلف تلاميذه ان يستعملوا اللغة الصحيحة ما امكن واذا استطاع التلميذ ان يتكلم باللغة الصحيحة هانت عليه الكتابة بها. اما الكتابة فيبعد ان يترن التلاميذ عليها في الصفوف الصغيرة على اسلوب ليس هذا محل بيان على الاستاذ ان ينشئ لهم جمعية يقدمون فيها الخطب والمناظرات على مثال الاسواق الادبية التي كان العرب يجتمعون فيها للمفاخرة والمناشدة والمناشلة كسوق عكاظ في الجاهلية وسوق المرند في الاسلام ثم فلينشئ لهم جريدة يتولون كتابتها بانفسهم ولكن ليحذر من ان يكثر ابواب الجريدة ومن ان يتقاضاهم ان يطيلوا في مقالاتهم ومن ان يكتبوا في مواضع لا يعرفونها فان ذلك يذهب لذتهم بالكتابة واذا ذهبت اللذة اسرع الموت الى الجريدة. بدون هاتين الواسطتين الخطب والجريدة لا يعرف التلميذ لماذا يتعلم الانشاء. واما القراءة والمطالعة فهما من اهم مصادر اللغة. اين توجد اللغة؟ اللغة لا توجد في كتب النحو حتى ولا في معاجم اللغة وانما توجد في ادبياتها في اشعارها في امثالها في كتب تاريخ الامة واخبارها وما اكثر هذه الكتب في لثتنا. ولذلك يجب على الاستاذ ان يرغب تلاميذه في المطالعة. يجب ان يكون في كل مدرسة مكتبة صغيرة للتلاميذ تجمع فيها الكتب النقية العبارة المنزهة عن العجبة والركاكة

والسجع البارد، واحتفاظاً برغبة التلاميذ في المطالعة يجب عليه ان ينوع الكتب ويحدها من وقت الى آخر . واحياء اللغة بواسطة التكلم والقراءة والكتابة يحتمل كلاماً طويلاً ولكن بهذا القدر كفاية

ثانياً من صيوب احلونا القديم انا نعلم النحو قبل ان يفهم التلاميذ وقبل ان يحتاجوا اليه وهذا يجعله شاقاً مملأً . نأخذ باباً من ابواب النحو وعلمة للتلميذ بكل تفاصيله ودقائقه هل حين لا يفهم ذلك ولا يعرف وجه استعماله وربما كانت تلك الاحكام والدقائق مما تقتضيه الصناعة لا الاستعمال . مثل هذه الجداول النحوية لان كتبنا النحوية اشبه بالجداول والتمارين مفيدة وقد لا يستغنى عنها ولكن يجب ان تترك الى آخر سني التحصيل فتساعد حينئذ على جمع المعلومات الجزئية التي مرت بالتلميذ تدريجياً . وعلى هذا فان كثيرين من الاساتذة لا يعطون تلاميذهم احكام الياق الواحد من النحو دفعة واحدة بل شيئاً بعد شيء حسب احتياجهم اليها وليس حسب ترتيبها في كتب النحو مع التمرين الكافي ليقروا داعماً بين الاحكام النظرية والعمل . ما اشبه كتب النحو بكتب اللغة . فان كتب اللغة نافعة مفيدة ولكن لا يمكن ان يتعلم احد اللغة من القاموس وكذلك لا يمكن ان يتعلم احد النحو من كتب النحو . وعندني انه يجب ان يوضع قاموس للنحو كما وضع قاموس للفاظ اللغة ولعل كتاب مقني اللبيب لابن هشام من هذا النوع . وحينئذ يجب ان تستعمل كتب النحو كما تستعمل كتب اللغة . لا يرجع الى القاموس الا عند الحاجة كذلك لا يرجع الى كتب النحو الا عند الحاجة . لا يرجع الى القاموس لمعرفة كل مادة بكل اشتقاقها ووجوه استعمالها بل يعرف معناها في سياق مخصوص وكذلك لا يرجع الى كتاب النحو ليعرف حكم من احكامه بكل تفاصيله ودقائقه بل ليعرف منه شيء من ذلك الحكم في جملة مخصوصة . لا يجوز ان يكون القاموس بين ايدي التلاميذ من اول ايام حين يحتاجون الى مراجعة كل كلمة بل اذا رجع التلميذ الى القاموس في الكلمة من عشر كلمات فان ذلك يورثه مللاً ويعوق نجاحه ولذلك يجب ان تكون دروسه في اللغة متدرجة من السهل الى الصعب من المعلوم الى المجهول من القريب الى البعيد لئلا تعترضه الصعوبات دفعة واحدة . وهكذا الامر في النحو فانه

يجب ان تدرج فيه من الاحكام السهلة الى الاحكام الصعبة من الاحكام المألوفة الى الاحكام الغير المألوفة ويجب ان يتخلل ذلك تعاريف كافية ليرسخ معها الحكم في الذهن فقد قيل ان نصف المعرفة مع مضاعف الاستعمال احسن من مضاعف المعرفة مع نصف الاستعمال

وكما انه لا يجوز ان يكون القاموس بين ايدي التلاميذ من اول امرهم كذلك لا يجوز الابتداء بالنحو في الصفوف الابتدائية اولاً لان عقول التلاميذ لا تستطيع ادراك احكام العقلية وقد اصطلح الاوربيون ان لا يعلموا النحو قبل ان يجاوز تلامذتهم الثانية عشرة من العمر. وثانياً لان دروس القراءة والاستظهار والانشاء تفي عنها

ثالثاً ومن عيوب اسلوبنا القديم ايضاً ان الحدود فيه موجزة بحيث تكاد تكون الغازاة ومن النحاة من تكلف نظمها شعراً مثل ابن مالك الذي اقتصر في ارجوزته بانها «تقرب الاقصى بلفظ موجز» على ان هذا الایجاز في اللفظ يستهلك دقائق ادمغة التلاميذ ويستغرق اوقاتهم في استخراج معناه وقد لا يستطيعون استخراجاً فيذهب التنب والعرضياً عاماً. ولعل توخي النحاة هذا الایجاز في كلامهم مما انسده عليهم فنتهم على انهم من الجهة الثانية يسبون في شرح تلك الحدود الموجزة بل المشكلة على غير فائدة وحيثاً يخرجون عن الموضوع الى مماحكات لا طائل تحتها مما يرهق الطالب ويسم ثقتاً. واما اليوم وقد اصبح الوقت حيناً ومواضيع الدرس عديدة فعلى الاستاذ ان يبسط تلك الحدود ويراعي في تفريراته افهام تلاميذه ولا يستعمل كلمة خارجة عن مألوفهم

رابعاً. ومن عيوب اسلوبنا القديم قلة التعاريف فيه. ولتعليم بالتأريخ اصول يجدر بكل استاذ ان يراعها وهي

(١) لا تأتي بمثل غريب عن افهام تلامذتك بل لتكن امثالك مما يعملونه او يقولونه او يفكرون به. واحسن الامثال ما كانت تحت انظارهم ورونها ويطبقون القاعدة عليها. اذا اردت ان تعلمهم التعامل مثلاً فلا تقل مثل قام زيد لثلاً تنصرف افكارهم الى احضار هذا الشخص في اذهانهم بل خذ واحداً منهم وكلمة ان يقوم او يقف او يدخل او يخرج او يمشي واسأله ماذا فعلت ثم اسأله

من فعل القيام او القعود او الدخول او الخروج او المشي . واذا اردت ان تعلمهم
المفعول فلا تقل مثل ضرب زيد صمراً بل اطلب من احد تلامذتك ان يحمل
الكرسي او يفتح الباب او يحول الفوح او يمزق الورق فان هذا اقرب الى افهامهم
من تلك الامثال المصطنعة التي لا يكاد نحوي يخرج عنها

(٢) الاحكام يجب ان تستخرج من الامثال لا ان تبني الامثال على الاحكام
اي يجب ان نعمل في تعليننا النحو اسلوب التحليل لا اسلوب التركيب . خذ
الجملة وحللها الى اجزائها وعرف التلاميذ علاقة كل كلمة باخرى لا ان تأخذ القاعدة
وتفصل احكامها ثم تسأل التلاميذ ماذا يتركب منها . وبناء عليه فالاحكام الكلية
يجب ان تتبع لان تسبق التارين وهي عين الطريقة التي جرى عليها واضعو
النحو فانهم استخرجوا احكاماً بالاستقراء . رأوا الامم مثلاً يرفع في مثل قولنا
قام الولد ثم استقروا ذلك في نظائر هذه الجملة فكان الامر كذلك فوضعوا القاعدة
الكلية . فاتبع طريقهم ولا تكتف بمثل واحد لان استخراج الحكم من مثل
واحد لا يكون استقراء

خامساً ومن عيوب الاسلوب القديم ان الاحكام فيه لا توضع باسبابها
الطبيعية . لعلم اولادنا المرفوعات والمنصوبات والمفعولات بدون ان تشير الى
الاسباب الطبيعية التي جعلت العرب تنصب الامم في هذه الجملة وترفع في تلك
ولهذا لا يمكن ان يحمل ايناؤنا في اللغة العربية حمل العرب . بل قد تحمل النحاة
بعض الاسباب لتلك الاحكام ولكنها اسباب واهية لا يقوم عليها دليل علمي ولا
ينهض فيها برهان معقول حتى ضرب المثل بضعف حجة النحوي . وليس يخفى ان
كل قانون نحوي هو قانون منطقي وكل اصطلاح في لغة يمثل حالة عقلية او
اخلاقية في الامة التي تستعمله يميزها عن غيرها . وان اشكال اللغة تشمل اشكال
الفكر البشري . ولعل هذا البحث من اجل ابحاث النحو واعونها على ترويض
العقل . ولستنا نظن ان الوقت يتسع الآن لان نلم بهذا الموضوع لانه يحتاج الى مقالة
برأسها فنرجئ الى فرصة اخرى والامور مرهونة باوقاتها

خليل السكاكيني

مدير القسم العربي في المدرسة المعيدية